الأصغر ، إن لم يكن معه امرأة ، وإن طاف فهو يتحلل التحلل الأكبر . أما الأيام المعدودات أى أيام التشريق فهى الأيام الثلاثة بعد يوم النحر . وقد سميت بذلك نسبة إلى الشروق ، والشروق خاص بالشمس ، كانوا قديماً إذا ما ذبحوا ذبائحهم أخذوا اللحم وشرقوه ، أى عرضوه لمطلع الشمس كلون من الحفظ ، ومن هنا سميت هذه الأيام بأيام التشريق . وعندما نسمع قوله : « فى أيام معدودات » نفهم منها أنها فوق يومين .

وبعد ذلك يقول الحق : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » . قول الحق سبحانه وتعالى : « فى أيام معدودات » ثم قوله : « فمن تعجل فى يومين » يدل على أن كلمة « أيام » تطلق على الجمع وهو الأكثر من يومين ، أى ثلاثة أيام ، لكن الحق سبحانه وتعالى جعل للقيام بيومين حكم القيام بالثلاثة ، فإن تعجلت فى يومين فلا إثم عليك ومن قضى ثلاثة أيام فلا إثم عليه كيف يكون ذلك ؟ .

لأن المسألة ليست زمناً ، ولكنها استحضار نية تعبدية ، فقد تجلس ثلاثة أيام وأنت غير مستحضر النية التعبدية ؛ لذلك قال سبحانه : « لمن اتقى » ، فإياك أن تقارن الأفعال بزمنها ، وإنما هى بإخلاص النية والتقوى فيها .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » . وقد جاء سبحانه وتعالى بكلمة « تحشرون » لتناسب زحمة الحج ؛ لأنه كما حشركم هذا الحشر وأنتم لكم اختيار ، هو سبحانه القادر أن يحشركم وليس لكم اختيار . فإذا كنت قد ذهبت باختيارك إلى هذا الحشر البشرى الكبير فى الحج فاعرف أن الذى كلفك بأن تذهب باختيارك لتشارك فى هذا الاجتماع الحاشد هو القادر على أن يأتى بك وقد سُلب منك الاختيار . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع أمامنا قضية وجودية ، وهذه القضية الوجودية هى أن كل عمل له ظاهر وله باطن . ومن الجائز أن تتقن الظاهر وتدلس على الناس فى الباطن ، فإذا كان الناس لهم مع بعضهم ظاهر وباطن . فمن مصلحة الإنسان أن ينتمى هو والناس جميعاً إلى عالم يعرف فيه كل إنسان أن هناك إلهاً حكيماً يعرف كل شىء عنا جميعاً .

فإذا كان عندك شىء لا أعلمه ، وأنا عندى شىء أنت لا تعلمه كيف تسير مصالحنا ؟ ولذلك فمن ضروريات حياتنا أن نؤمن معا بإله يطلع على سرائرنا جميعاً ، وهذا ما يجعلنا نلزم الأدب . ولذلك قيل : « إن عَمِّيَتَ على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء » .

إذن فقضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أن نحمده عليها ، لأنه هو الذى سيحمى كل واحد منا من غيره . وعندما ستر الله غيبنا فذلك نعمة يجب أن نشكره عليها ؛ لأن النفوس متقلبة . فلو علمت ما فى نفسى عليك فى لحظة قد لا يسرك . . وقد لا تنساه أبدا ويظل رأيك فىّ سيئاً ، لكن الظنون والآراء تمر عندى وعندك وتنتهى . ولو اطلع كل منا على غيب الآخر لكانت الحياة مرهقة ، والقول المأثور يذكر ذلك : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » .

إذن فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خلقه أن ستر غيب خلقه عن خلقه . والحق يحذرنا ممن قال فيهم : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » أى الذين يظهرون من خير خلاف ما يبطنون من شر ، ولذلك صور الشاعر هذه المسألة فقال :

عـلى الـذم بتنـا مجمعـين وحـالنـا
من الخـوف حال المجمعين عـلى الحمـد

أى لو تكاشفنا لقلنا كلنا ذماً ، إنما كلنا مداحون حين يلقى بعضنا بعضا كل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . و« يعجبك قوله » فهل الممنوع أن يعجبك القول ؟ لا ، يعجبنى القول ولكن فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يعجب هو ما يتعلق بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمن لنا الخير عند من يملك كل الخير .

وكفى بالذى يسمع من مادح له مدحاً ، والمادح نفسه يُضمر فى قلبه كرهاً له ، وكفى بذلك شهادة تغفيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : « إن الممدوح غبى ؛ لأنى أمدحه وهو مصدق مدحى له » . إن الله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى ضرورة أن يكون المسلم يقظا وفطناً ، ومن يقول لنا كلاماً يعجبنا فى الحياة الدنيا نتهمه بأن كلامه ليس حسنا ؛ لأن خير الكلام هو ما يكون فى الأمر الباقى .

ولذلك عندما أرسل خليفةُ المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له : ـ لماذا لاتغشانا ـ أى لا تزورنا ـ كما يغشانا الناس ؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد فليس عندى من الدنيا ما أخاف عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له . وكأنه يريد أن يقول له اتركنا وحالنا ؛ أنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك ، وأنت لا تعلم أن أول أناس لهم رأى سيىء فيك هم من يمدحونك .

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » وهذه الآية نزلت فى الأخنس ابن شريق الثقفى واسمه أُبَىّ ولقب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأن العير قد نجت من المسلمين وعادت إليهم ، وكان ساعة يقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر إسلامه ويلين القول للرسول ويدعى أنه يحبه،ولكنه بعد أن خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بزرع وحُمُر لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحُمُر . والآية وإن نزلت فى الأخنس فهى تشمل كل مُنافق .

« ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » لا تقولوا : « الله يشهد » ، وإنما

هاتوا شهداءكم ليشهدوا على صدق قولكم ؛ لأن معنى « الله يشهد » هو إخبار منك بأن الله يشهد لك . وأنت كاذب فى هذه ، وتريد أن تضفى المصداقية على كذبك بإقحام الله فى المسألة .

وساعة تسمع واحداً يقول لك : أُشهِدُ الله على أنى كذا ، فقل له : هذا إخبار منك بأن الله يشهد ، وأنت قد تكذب فى هذا الخبر ، أنا أفضل أن يشهد اثنان من البشر ولا نقحم الله فى هذه الشهادة . « ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » وألد الخصام هو الفاسق فى معصيته ، ويقال : فلان عنده لدد أى له فسق فى خصومته ، ويجادل بالباطل . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إنّ أبغض الرجال إلى الله هو الألد الخصم »[1] .

يعنى المجادل بالباطل الذى عنده قسوة فى المعصية ، فهو عاصٍ وفى الوقت نفسه قاسٍ فى معصيته . ولماذا هو ألد الخصام ؟ لأن الذى يجابهك بالأمر يجعلك تحتاط له ، أما الذى يقابلك بنفاق فهو الذى يريد أن يخدعك ، وهذا عنف فى الخصومة ، فالخصم الواضح أفضل لأنه يواجهك بما فى باطنه ، لكن إذا جابهت الذى يُبطِن خصومته ويظهر محبته يكون قاسياً عليك فى خصومته ؛ لأنه يريد أن يخدعك ويُبيِّتُ لك .

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » و « تولى » : انصرف أى يقول لك ما يعجبك ، فإذا تولى عنك نقل المسألة إلى الحقيقة بإظهار ما كان يخفيه ، ويحتمل المعنى أنه إذا تولى شيئاً آخر ، من الولاية ، ففيه « تَولّى » من التّولّى وهو الانصراف والإعراض ، وفيه « تَولّى » من الولاية .

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » كانت الأرض بدون تدخل البشر مخلوقة على هيئة الصلاح ، والفساد أمر طارىء من البشر . ونعرف أن الفساد لم يطرأ على أى أمر إلا وللإنسان فيه دخل .

---

(١) رواه البخارى ، ومعنى « الألد الخصم » : الأشد فى خصومته .

لماذا اشتكينا أزمة قوت ولم نشتك أزمة هواء ؟ لأن الهواء لا تدخل للإنسان فيه ، وبمقدار تدخل الإنسان يكون الفساد . لقد تدخلنا قليلاً فى المياه فجاء فى ذلك فساد ، فلم نحسن نقلها فى مواسير جيدة فوصلت لنا ملوثة ، أو زاد عليها الكلور أو نقص . وبقدر ما يكون التدخل يكون الإفساد ، أما فى الزمن القديم فقد كان الإنسان يذهب إلى مصدر الماء المباشر فى الآبار ويأخذ الماء الطبيعى الذى خلقه الله بلا تدخل من الإنسان ولم يكن تلوث أو غيره .

إذن على مقدار وجود الإنسان فى حركة الحياة غير المُرشّدة بالإيمان بالله ينشأ الفساد ، ولذلك كان لابد له من منهج سماوى للإنسان . والكائنات غير الإنسان ليس لها منهج وهى مخلوقة بالغريزة وتؤدى مهمتها فقط ؛ فالدابة لم تمتنع يوماً عن ركوبك عليها ، ولم تمتنع أن تحمل عليها أثقالك ، أو تستعين بها فى الحرث ، أو الرى ، حتى عندما تذبحها لا تمتنع عليك ، لماذا ؟ لأنها مخلوقة بالغريزة التى تؤدى بها الحركة النافعة بدون اختيار منها . وإذا امتنعت فى وقت فإنما يكون ذلك لأمر طارىء كمرض مثلا .

لكن الذى له اختيار لابد أن يكون له منهج يقول له : افعل هذه ولا تفعل تلك . فإن استقام مع المنهج فى « افعل » و« لا تفعل » سارت حياته بشكل متوازن ، لكن إذا لم يستقم تفسد الحياة . وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » ، كأن الإفساد هو الذى يحتاج إلى عمل ، اترك الطبيعة والمخلوقات كما هى تجدها تعمل فى انضباط وكمال على ما يرام .

إذن فالفساد طارىء من الإنسان الذى يحيا بلا منهج لأنه « إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » فكأن الأصل فى الأرض وما فيها جاء على هيئة الصلاح ، فإن لم تزد الصالح صلاحاً فلا تحاول أن تفسده . قال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومن هنا نفهم أنهم ظنوا أن الأرض تحتاج إلى حركتهم لإصلاحها ، برغم أن الأرض بدون حركتهم صالحة ؛ لأنهم لا يتحركون بمنهج الله .

إذن هذه الآية نفهم منها أن الإنسان إذا « تولى » بمعنى رجع أو تولى ولاية سعى فى الأرض ليفسد فيها ؛ فكأن الفساد فى الأرض أمر طارىء وينتج من سعى الإنسان على غير منهج من الله . وما دام للإنسان اختيار فيجب أن يكون له منهج أعلى منه يصون ذلك الاختيار ، فإن لم يكن له منهج وسار على هواه فهو مفسد لا محالة .

وانظر إلى غباء الذى يفسد فى الأرض ، هل يظن أنه هو وحده الذى سيستفيد فى الأرض ، فأباح لنفسه أن يفسد فى الأرض لغيره ؟ إنه ينسى الحقيقة ، فكما يُفسد لغيره ، فغيره يفسد له ، فمَنْ الخاسر ؟ كلنا سنخسر إذن .

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ . . (٢٠٥) ﴾

(سورة البقرة)

والحرث له معنيان : فمرة يُطلق على الزرع ، ومرة يُطلق على النساء ، المعنى الأول ورد فى قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ . . (٧٨) ﴾

(سورة الأنبياء)

فالحرث فى الآية معناه : الزرع ، والزرع ناتج عن إثارة الأرض وإهاجتها . وعملك يا أيها الإنسان أن تهيج الأرض وتثيرها ، وتأتى بالبذر الذى خلقه الله فى الأرض التى خلقها الله ، وتسقيها بالماء الذى خلقه الله ، وتكبر فى الهواء الذى خلقه الله ، ولذلك يلفتنا وينبهنا الحق ـ سبحانه ـ فيقول :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾

(سورة الواقعة)

والمعنى الثانى : يُطلق الحرث على المرأة فى قوله تعالى :

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وإذا كان حرث الزرع هدفه إيجاد النبات فكذلك المرأة حتى تلد الأولاد . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وأراد المتحللون الإباحيون أن يُطلقوا إتيان المرأة فى جميع جسدها ، ونقول لهم : لاحظوا قوله : « حرثكم » والحرث محل الإنبات ، فالإتيان يكون فى محل الإنبات فقط ، لا تفهمها تعميماً وإنما هى تخصيص . ويتابع الحق وصف الذى يقول القول الحسن ، ولكنه يسعى فى الأرض بالفساد فيقول : « ويهلك الحرث والنسل » . والنسل هو الأنجال والذرية .

ويذيل الحق الآية : « والله لا يحب الفساد » أى أن الحق يريد منكم إن لم تدخلوا بطاقة الله التى خلقها لكم فكراً وعطاء ، فعلى الأقل اتركوا المسألة كما خلقها الله ؛ لأن الله لا يحب أن تفسدوا فيما خلقه صالحاً فى ذاته .

وما سبق فى هذه الآية هو مجرد صورة من صور استقبال الدعوة الإسلامية فى أول عهدها ، من الذين كانوا ينافقون واقعها القوى ، فيأتون بأقوال تُعجب ، وبأفعال تعجب من يُنافق . ونعرف أن النفاق كان دليلا على قوة المسلمين ، ولذلك لم ينشأ النفاق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة . فقد قال الحق :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة التوبة)

وربما يتساءل إنسان : وكيف تظهر هذه الظاهرة فى البيئة الإيمانية القوية فى المدينة ؟ ونقول : لأن الإسلام فى مكة كان ضعيفاً ، والضعيف لا ينافقه أحد ، والإسلام فى المدينة أصبح قوياً ، والقوى هو الذى ينافقه الناس .

إذن، فوجود النفاق فى المدينة كان ظاهرة صحية تدل على أن الإيمان أصبح قوياً بحيث يدعيه مَنْ ليس عنده إسلام . وهؤلاء كانوا يقولون قولاً حسناً جميلاً ، وقد يفعلون أمام مَنْ ينافقونه فعلاً يُعجب مَنْ يراهم أو يسمعهم ، ولكنهم لا يثبتون على الحق ، فإذا ما تولوا ، أى اختفوا عن أنظار مَنْ ينافقونه رجعوا إلى أصلهم الكفرى ، أو إذا ائتمنوا على شىء فهم يسعون فى الأرض فساداً .

والآية هنا تتعرض لشىء يدل على فطنة المؤمنين ، إن الآية فضحت مَنْ نافق . وكان الأخنس عمدة فى النفاق ، وفضيحة المنافق بهذه الصورة ، تدل على أن وراء محمد صلى الله عليه وسلم ووراء المؤمنين بمحمد ، رباً يخبرهم بـمَنْ يدلس عليهم، وأيضاً ينبههم لضرورة أن تكون لهم فطنة بدليل قول الحق :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

ولا يقال له اتق الله إلا إذا كان قد عرف أنه منافق ، وما داموا قد قالوا له ذلك فهذا دليل على أن فطنتهم لم يجز عليها هذا النفاق . ونفهم من هذه الآية أن المؤمن كيِّس فطن ، ولابد أن ينظر إلى الأشياء بمعيار اليقظة العقلية ، ولا يدع نفسه لمجرد الصفاء الربانى ليعطيه القضية ، بل يريد الله أن يكون لكل مؤمن ذاتية وكياسة .

« وإذا قيل له اتق الله » فكأن المظهر الذى يقول أو يفعل به ، ينافى التقوى ؛ لأنه قول معجب لا ينسجم مع باطن غير معجب ، صحيح أنه يصلى فى الصف الأول ،

ويتحمس لقضايا الدين ، ويقول القول الجميل الذى يعجب النبى صلى الله عليه وسلم ويعجب المؤمنين ، لكنه سلوك وقول صادر عن نية فاسدة . ومعنى « اتق الله» أى ليكن ظاهرك موافقاً لباطنك ، فلا يكفى أن تقول قولاً يُعجب ، ولا يكفى أن تفعل فعلاً يروق الغير ؛ لأن الله يحب أن يكون القول منسجماً مع الفعل ، وأن يكون فعل الجوارح منسجماً مع نيات القلب .

إذن، فالمؤمن لا بد أن تكون عنده فطنة ، وذكاء ، والْمعيَّة ، ويرى تصرفات المقابل ، فلا يأخذ بظاهر الأمر . ولا بمعول القول ولا الفعل ، إن لم يصادف فيه انسجام فعل مع انسجام نية . ولا يكتفى بأن يعرف ذلك وإنما لا بد أن يقول للمنافق حقيقة ما يراه حتى يقصر على المنافق أمد النفاق ، لأنه عندما يقول له : « اتق الله » يفهم المنافق أن نفاقه قد انكشف ، ولعله بعد ذلك يرتدع عن النفاق ، وفى ذلك رحمة من المؤمن بالمنافق . وكل مَنْ يرى ويلمح بذكائه نفاقاً من أحد هنا يقول له : « اتق الله » فالمراد أن يفضح نفاقه ويقول له : « اتق الله » . فإذا قال له واحد : «اتق الله » وقال له آخر : « اتق الله » ، وثالث ، ورابع ، فسيعرف تماماً أن نفاقه قد انكشف ، ولم يعد كلامه يعجب الناس .

« وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » ، وتقييد العزة بالإثم هنا يفيد أن العزة قد تكون بغير إثم ، وما دام الله قد قال : « أخذته العزة بالإثم » ، فهناك إذن عزة بغير إثم . نعم ، لأن العزة مطلوبة للمؤمن والله عز وجل حكم بالعزة لنفسه وللرسول وللمؤمنين :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

وهذه عزة بالحق وليست بالإثم . وما الفرق بين العزة بالحق وبين العزة بالإثم ؟ ولنستعرض القرآن الكريم لنعرف الفرق . ألم يقل سحرة فرعون فيما حكاه الله عنهم :

﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

هذه عزة بالإثم والكذب . وكذلك قوله تعالى :

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة ص)

وهي عزة كاذبة أيضا أما قوله عز وجل :

﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فتلك هي العزة الحقيقية ، إذن فالعزة هي القوة التي تَغْلِبُ ، ولا يَغْلِبها أحد . أما العزة بالإثم فهي أنفة الكبرياء المقرونة بالذنب والمعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول لكل من يريد هذا اللون من العزة بالإثم : إن كانت عندك عزة فلن يقوى عليك أحد ، ولكن يا سحرة فرعون يا من قلتم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، أنتم الذين خررتم سُجَّداً لموسى وقلتم :

﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ولم تنفعكم عزة فرعون ؛ لأنها عزة بالإثم ، لقد جاءت العزة بالحق فغلبت العزة بالإثم . لذلك يبين لنا الحق سبحانه وتعالى أن العزة حتى لا تكون بالإثم ، يجب أن تكون على الكافر بالله ، وتكون ذلة على المؤمن بالله .

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وكذلك قوله الحق :

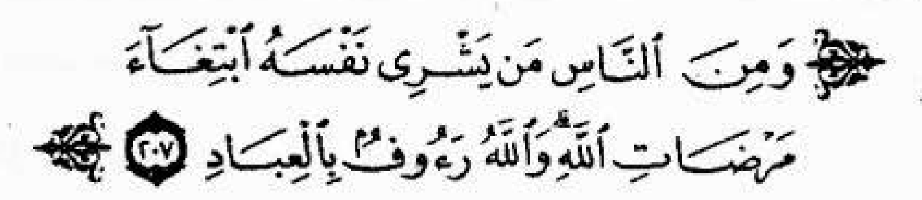
﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وهذه دليل العزة بالحق ، وعلامتها أنها ساعة تغلب تكون في منتهى الانكسار ولنا القدوة في سيدنا رسول الله ﷺ ، وهو الذي خرج من مكة لأنه لم يستطع أن يحمي الضعفاء من المؤمنين ، وبعد ذلك يعود إلى مكة فاتحاً بنصر الله ، ويدخل مكة ورأسه ينحني من التواضع لله حتى يكاد أن يمس قربوس سرج دابته، تلك هي القوة ، وهي على عكس العزة بالإثم التي إن علبت تطغى ، إنما العزة بالحق إن علبت تتواضع .

«وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم» أي أن الأنفة والكبرياء مقرونة بالإثم ، والإثم هو لمخالف للمأمور به من الحق سبحانه وتعالى ، « فحسبه جهنم ولبئس المهاد » . أي عزة هذه التي تقود في النهاية إلى النار؟ إنها ليست عزة، ولكنها ذلة ، فلا خير في عمل بعده النار ، ولا شر في بعده الجنة . فإن أردت أن تكون عزيزاً فتأمل عاقبتك وإلى أين ستذهب؟

«فحسبه» أي يكفيه هذا فضيحة لعزته بالإثم ، وأما كلمة «مهاد» فمعناها شيء ممهد ومُوطأ ، أي مريح في الجلوس والسير والإقامة . ولذلك يسمون فراش الطفل المهد . وهل المهاد بهذه الصورة يناسب العذاب؟نعم يناسبه تماماً ؛ لأن الذي يجلس في المهاد لا إرادة له في أن يخرج منه ، كالطفل فلا قوة له في أن يغادر فراشة . إذن فهو قد فقد إرادته وسيطرته على إبعاضه . فإن كان المهاد بهذه الصورة في النار فهو بئس المهاد هذا لون من الناس وفي المقابل يعطينا ـ سبحانه ـ لوناً آخر من الناس فيقول سبحانه :



---

(١) القربوس هو الجزء المرتفع المقوس من السرج

والله سبحانه تعالى ساعة يستعمل كلمة « يشرى » يجب أن نلاحظ أنها من الأفعال التى تستخدم فى الشىء ومقابلة ، فـ «شرى» يعنى أيضا «باع» . إذن كلمة «شرى» لها معينان ، واقرأ إن شئت فى سورة يوسف قوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [سورة يوسف]

أى باعوه بثمن رخيص . وتأتى أيضا بمعنى اشترى ، فالشاعر العربى القديم عنترة ابن شداد يقول : فخاض غمارها وشرى وباعا .

إذن «شرى» لغة، تُسعمل فى معنيين : إما أن تكون بمعنى « باع » ، وإما أن تكون بمعنى « اشترى » ، والسياق والقرينة هما اللذان يحددان المعنى المقصود منها فقول عنترة : « شرى وباع » نفهم أن المقصود من «شرى» هنا هو « اشترى » لأنها مقابل « باع »، وقوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [سورة يوسف]

يوضحة سياق الآية بأنهم باعوه . وهذا من عظمة اللغة العربية، إنها لغة تريد أناساً يستقبلون اللفظ بعقل ، ويجعلون السياق يتحكم فى فهمهم للمعانى .

«ومن الناس من يشرى نفسه» ونفهم «يشرى» هنا بمعنى يبيع نفسه ، والذى يبيع نفسه هو الذى يفقدها بمقابل . والإنسان عندما يفقد نفسه فهو يضحى بها ، وعندها تكون التضحية ابتغاء مرضاة الله فهى الشهادة فى سبيله عز وجل ، كأنه باع نفسه وأخذ مقابلها مرضاة الله .

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [سورة التوبة]

إن الحق يعطيهم الجنة مقابل أنفسهم وأموالهم . إذن فقوله : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » يعنى باع نفسه وأخذ الجنة مقابلاً لها ، هذا إذا كان معنى « يشرى » هو باع .

وماذا يكون المعنى إذا كانت بمعنى اشترى ؟ هنا نفهم أنه اشترى نفسه بمعنى أنه ضحى بكل شيء فى سبيل أن تَسلم نفسه الإيمانية . ومن العجب أن هذه الآية قيل فى سبب نزولها ما يؤكد أنها تحتمل المعنيين ، معنى « باع » ومعنى « اشترى » فها هو ذا أبو يحيى الذى هو صهيب بن سنان الرومى كان فى مكة ، وقد كبر سنه ، وأسلم وأراد أن يهاجر ، فقال له الكفار : لقد جئت مكة فقيراً وآويناك إلى جوارنا وأنت الآن ذو مال كثير ، وتريد أن تهاجر بمالك .

فقال لهم : أإذا خليت بينكم وبين مالى أأنتم تاركونى ؟

قالوا : نعم .

قال : تضمنون لى راحلة ونفقة إلى أن أذهب إلى المدينة ؟

قالوا : لك هذا .

إنه قد شرى نفسه بهذا السلوك واستبقاها إيمانياً بثروته ، فلما ذهب إلى المدينة لقيه أبو بكر وعمر فقالا له : ربح البيع يا أبا يحيى .

قال : وأربح الله كل تجارتكم .

وقال له سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن جبريل أخبره بقصتك ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : ربح البيع أبا يحيى . إذن معنى الآية وفق هذه القصة : أنه اشترى نفسه بماله ، وسياق الآية يتفق مع المعنى نفسه . وهذه من فوائد الأداء القرآنى حيث اللفظ الواحد يخدم معنيين متقابلين .

ولكن إذا كان المعنى أنه باعها فلذلك قصة أخرى ، ففى غزوة بدر ، وهى أول غزوة فى الإسلام ، وكان صناديد قريش قد جمعوا أنفسهم لمحاربة المسلمين فى هذه الغزوة ، وتمكن المسلمون من قتل بعض هؤلاء الصناديد ، وأسروا منهم كثيرين أيضاً، وكان ممَّنْ قتلوا فى هذه الغزوة واحد من صناديد قريش هو أبو عقبة الحارث

ابن عامر والذى قتله هو صحابى اسمه خبيب بن عدى الأنصارى الأوسى ، وهو من قبيلة الأوس بالمدينة ، وبعد ذلك مكر بعض الكفار فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ قالوا : يارسول الله ، إننا قد أسلمنا ، ونريد أن ترسل إلينا قوما ليعلمونا الإسلام. فأرسل لهم رسول الله ﷺ عشرة من أصحابه ليعلموهم القرآن ، فغدر الكافرون بهؤلاء العشرة فقتلوهم إلا خبيب بن عدى ، استطاع أن يفر بحياته ومعه صحابى آخر اسمه زيد بن الدَّثِنَة ، لكن خبيباً وقع فى الأسر وعرف الذين أسروه أنه هو الذى قتل أبا عقبة الحارث فى غزوة بدر ، فباعوه لابن أبى عقبة ليقتله مقابل أبيه ، فلم يشأ أن يقتله وإنما صلبه حياً ، فلما تركه مصلوباً على الخشبة ، قال رسول الله ﷺ وهو فى المدينة : من ينزل خبيبا عن خشبته وله الجنة ؟

قال الزبير : أنا يارسول الله .

وقال المقداد : وأنا معه يارسول الله .

فذهبا إلى مكة فوجدا خبيباً على الخشبة وقد مات وحوله أربعون من قريش يحرسونه ، فانتهزا منهم غفلتهم وذهبا إلى الخشبة وانتزعا خبيباً وأخذاه ، فلما أفاق القوم لم يجدوا خبيباً فقاموا يتتبعون الأثر ليلحقوا بمن خطفوه ، فراهم الزبير ، فألقى خبيباً على الأرض ثم نظر إليه فإذا بالأرض تبتعله فسمى بليع الأرض . وبعد ذلك التفت إليهم ونزع عمامته التى كان يتخفى وراءها وقال : أنا الزبير بن العوام، أمى صفية بنت عبد المطلب ، وصاحبى المقداد ، فإن شئتم فاضلتكم - يعنى يفاخر كل منهما بنفسه - وإن شئتم نازلتكم - يعنى قاتلتكم - وإن شئتم فانصرفوا ، فقالوا : ننصرف ، وانصرفوا ، فلما ذهب الزبير والمقداد إلى رسول الله ﷺ بشرهم بالجنة التى صار إليها خبيب .

إذن فقد باع خبيب نفسه بالجنة . وعلى ذلك فإن ذهبت بسبب نزول الآية إلى أبى يحيى صهيب بن سنان الرومى تكون «شرى» بمعنى اشترى ، وإن ذهبت بسبب النزول إلى خبيب فتكون بمعنى : باع . وهكذا نجد أن اللفظ الواحد فى القرآن الكريم يحتمل أكثر من واقع .

وخبيب بن عدى هذا قالت فيه ماوية ابنة الرجل الذى اشتراه ليعطيه لعقبة ليقتله مقابل أبيه ، قالت : والله لقد رأيت خبيباً يأكل قطفاً من العنب كرأس الإنسان ! ووالله ما فى مكة حائط - بستان - ولا عنب وإنما هو رزق ساقه الله له .

ولما جاءوا ليقتلوه قال : أنظرونى أصلِّ ركعتين . فصلى ركعتين ونظر إلى القوم وقال : والله لولا أنى أخاف أن تقولوا إنه زاد فى الصلاة لكى نبطىء بقتله لزدت . وقال قبل أن يقتلوه : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً . ثم هتف وقال :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً
على أى فى جنب كان فى الله مصرعى

وكان ذلك آخر ما قاله .

ويقول الحق : « والله رءوف بالعباد » وما العلاقة بين ما سبق وبين رءوف بالعباد ؟ ما دام الله رءوفاً بالعباد فلم يشأ الله أن يجعل ذلك أمراً كلياً فى كل مسلم، وإنما جعلها فلتات لتثبت صدق القضية الإيمانية ، لأنه لا يريد أن يضحى كل المسلمين بأنفسهم ، وإنما يريد أن يستبقى منا أناساً يحملون الدعوة .

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى أصناف الناس الذين يستقبلون الدعوة كفراً ونفاقاً ، ومَنْ يقابلهم ممن يستقبلونها إيماناً خالصاً ، نادى جميع المؤمنين فقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

تبدأ الآية بنداء الذين آمنوا بالله وكأنه يقول لهم : يا مَنْ آمنتم بى استمعوا

لحديثى . فلم يكلف الله من لم يؤمن به وإنما خاطب الذين أحبوه وامنوا به، وماداموا قد أحبوا الله فلابد أن يتجه كل مؤمن إلى من يحبه. لأن الله لن يعطيه إلا ما يسعده.

إذن فالتكليف من الله إسعادٌ لمن أحب، «يا أيها الذين امنوا ادخلوا فى السلم كافة»، وكلمة «فى» تُفيد الظرفية، ومعنى الظرفية أن شيئا يحتوى شيئا مثال ذلك الكوب الذى يحتوى الماء فنقول: «الماء فى الكوب»، وكذلك المسجد يحتوى المصلين فنقول: «المصلون فى المسجد».

والظرفية تدل على إحاطة الظرف بالمظروف، ومادام الظرف قد أحاط بالمظروف إذن فلا جهة يفلت منها المظروف من الظرف. ولذلك يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة التمكن من مسألة الظرفية عندما يقول:

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

إن الصلب دائماً يكون على شيء ، وتشاء الآية الكريمة أن تشرح لنا كيف يمكن أن يكون الصلب متمكناً من المصلوب . فأنت إذا أردت أن تصلب شيئاً على شيء فأنت تربطه على المصلوب عليه ، فإذا ما بالغت فى ربطه كأنك أدخلت المصلوب داخل المصلوب عليه .

ومثال ذلك ، هات عود كبريت وضعه على إصبعك ثم اربطه بخيط ربطا جيداً ، ستلاحظ أن العود قد غاص فى جلدك . والحق يقول : « ادخلوا فى السلم كافة » والسِّلْم والسَّلْمُ والسَّلم هو الإسلام ، فالمادة كلها واحدة ؛ لأن السلم ضد الحرب ، والإسلام جاء لينهى الحرب بينك وبين الكون الذى تعيش فيه لصالحك ولصالح الكون ولتكون فى سلام مع الله وفى سلام مع الكون ، وفى سلام مع الناس . وفى سلام مع نفسك .

قوله : « ادخلوا فى السلم » معناه حتى يكتنفكم السلم . إن الله هو الإله الخالق

للكون ولابد أن تعيشوا فى سلام معه ؛ لأنكم لا تؤمنون إلا به إلهاً واحداً . فيجب علينا أن نعيش مع الأرض والسماء والكون فى سلام ؛ لأن الكون الخاضع المقهور المسخر الذى لا يملك أن يخرج عما رُسم له يعمل لخدمتك ولا يعاندك .

والإنسان حين يكون طائعاً يُسَرّ به كل شىء فى الوجود ؛ لأن الوجود طائع ومُسبِّح ، فساعة يجد الإنسانَ مُسبِّحاً مثله يُسَرّ به لأنه فى سلام مع الكون . وأنت فى سلام مع نفسك ؛ لأن لك إرادة ، وهذه الإرادة قَهَرَ اللهُ لها كل جوارحك ، والذى تريده من أى عضو يفعله لك ، لكن هل يرضى أى عضو عمّا تأمره به ؟ تلك مسألة أخرى ، مثلا ، لسانك ينفعل بإرادتك ، فتقول به : « لا إله إلا الله » وقال به غيرنا من المشركين غير ذلك ، وأشركوا مع الله بشراً وغير بشر يعبدونهم . وقال الملحدون بألسنتهم والعياذ بالله : « لا إله فى الكون » ولم يعص اللسان أحداً من هؤلاء لأنه مقهور لإرادتهم .

وتنتهى إرادة الإنسان على لسانه وعلى جميع جوارحه يوم القيامة فيشهد عليه كما تشهد عليه سائر أعضائه : الأرجل ، والأيدى ، والعيون ، والآذان ، وكل عضو يُقر بما كان يفعل به ، لأنه لا سيطرة للإنسان على تلك الأبعاض فى هذا اليوم . إنما السيطرة كلها للخالق الأعلى .

« لمن المُلك اليوم لله الواحد القهار » . والحق حين ينادى المؤمنين بأن يدخلوا فى السلم كافة فالمعنى يحتمل أيضا أن الحق سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين ألا يأخذوا بعضاً من الدين ، ويتركوا البعض الآخر ، فيقول لهم : خذوا الإسلام كُله وطبقوه كاملاً ؛ لأن الإسلام يمثل بناء له أسس معلومة ، وقواعد واضحة ، فلا يحاول أحد أن يأخذ شيئاً من حكم بعيداً عن حكم آخر ، وإلا لحدث الخلل .

وعلى سبيل المثال قد تجد خلافاً بين الزوج والزوجة ، وقد يؤدى الخلاف إلى معارك وطلاق ، وبعد ذلك نجد من يتهم الإسلام بأنه أعطى الرجل سيفاً مسلطاً على المرأة . ونقول لهم : ولماذا تتهمون الإسلام ؟ هل دَخَلْتَ على الزواج بمنطق الإسلام ؟ . إن كنت قد دخلت على الزواج بمنطق الإسلام فستجد القواعد المنظمة

والتى تحفظ للمرأة كرامتها ، ولكن هناك مَنْ يدخل على الزواج بغير منطق الإسلام، فلما وقع فى الأزمة راح ينادى الإسلام . هل اختار الرجل مَنْ تشاركه حياته بمقياس الدين ؟ وهل وضع نُصب عينيه شروط اختيار الزوجة الصالحة التى جاءت فى الحديث الشريف :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »(1) .

هل فضّل الرجل ذات الدين على سواها ؟ أم فضّل مقياساً آخر ؟. وعندما جاء رجل ليخطب ابنة من أبيها هل وضع الأب مقاييس الإسلام فى الاعتبار عند موافقته على هذا الزواج ؟ هل فضلتم مَنْ ترضون دينه وخُلُقه ؟ أم تركتم تلك القواعد . أنت تركت قواعد الإسلام ، فلماذا تلوم الإسلام عند سوء النتائج والعواقب ؟.

إنك إن أردت أن تحاسب فلابد أن تأخذ كل أمورك بمقاييس الإسلام ، ثم تصرّف بما يناسب الإسلام . فإن كنت كذلك فالإسلام يحميك من كل شىء . فالإسلام يساند القُوَى فى الكون ويساند القُوَى فى النفس بحيث تعيش فى سلام ولا تتعاند ؛ لأن كل ذلك يقابله الحرب . والحرب إنما تنشأ من تعاند القوى ، فتتعاند قوى نفسك فى حرب مع نفسك ، وتتعاند قوى البشر فى حرب البشر مع البشر ، وتتعاند قواك مع قوى الكون الأخرى ، فأنت تعاند الطبيعة وتعاند مع الحق سبحانه وتعالى .

إذن، فالتعاند ينشأ منه الحرب ، والحرب لا تنشأ إلا إذا اختلفت الأهواء . وأهواء البشر لا يمكن أن تلتقى إلا عندما تكون محروسة بقيم مَنْ لا هوى له ، ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. (٧١) ﴾

(سورة المؤمنون)

(1) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

لماذا ؟ . دعك من الكون الأصم حولك ، أو دعك من الكون الذى لا اختيار له فى أن يفعل أو ينفعل لك ؛ فهو فاعل أو منفعل لك بدون اختيار منه ، ولكن انظر إلى البشر من جنسك ، فما الذى يجعل هوى إنسان يسيطر على أهواء غيره ؟ .

ما الذى زاده ذلك الإنسان حتى تكون أنت تابعاً له ؟ أو يكون هو تابعاً لك ؟ . وفى قانون التبعية لا يمكن إلا أن يكون التابع مؤمناً بأن المتبوع أعلى منه ، ولا يمكن لبشر أن توجد عنده هذه الفوقية أبداً . لذلك لابد للبشر جميعاً أن يكونوا تبعاً لقوة آمنوا بأنها فوقهم جميعاً . فحين نؤمن ندخل فى السلم ، ولا يوجد تعاند بين أى قوة وقوة أخرى ؛ لأنى لست خاضعاً لك ، وأنت لست خاضعا لى ، وأنا وأنت مسلمون لقوة أعلى منى ومنك ، ويُشترط فى القوة التى نتبعها طائعين ألا يكون لها مصلحة فيما تشرع .

إن المشرعين من البشر يراعون مصالحهم حين يشرعون ، فمشرع الشيوعية يضع تشريعه ضد الرأسمالية ، ومشرع الرأسمالية يضع تشريعه ضد الشيوعية ، لكن عندما يكون المشرع غير منتفع بما يشرع ، فهذا هو تشريع الحق سبحانه وتعالى .

وحين ندخل فى الإسلام ندخل جميعاً لا يشذ منا أحد ، ذلك معنى « ادخلوا فى السلم كافة » ، هذا معنى وارد ، وهناك معنى آخر وارد أيضا وهو ادخلوا فى السلم أى الإسلام بجميع تكاليفه بحيث لا تتركوا تكليفاً يشذ منكم .

وحين يأتى المعنى الأول فلأننا لو لم ندخل فى السلم جميعاً لشقى الذين يُسلمون بالذين لا يُسلمون ؛ لأن الذى يُسلم سيهذب سلوكه بالنسبة للآخرين ، ويكون نفع المسلم لسواه ، ويشقى المسلم بعدم إسلام من لم يسلم ، فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون جميعاً مسلمين . والذين لا يدركون هذه الحقيقة يفسرون قول الله تعالى :

﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة المائدة)

على غير ظاهرها ، فمن ضِمْن هدايتكم أن تُبَصِّرُوا من لم يؤمن بأن يؤمن ؛ لأن

مصلحتكم أن تسلموا جميعاً ، فإذا أسلمت أنت فسيعود إسلامك على الغير ؛ لأن سلوكك سيصبح مستقيماً مهذباً ، والذى لم يسلم سيصبح سلوكه غير مستقيم وغير مهذب ، وستشقى أنت به . إذن فمن مصلحتك أن تقضى وقتاً طويلاً وتتحمل عناءً كبيراً فى أن تدعو غيرك ليدخل فى الإسلام . وإياك أن تقول : إن ذلك يضيع عليك فرص الحياة . لا إنه يضمن لك فرص الحياة ، ولن يضيع وقتك لأنك ستحمى نفسك من شرور غير المسلم .

واذكر جيداً أننا حين تكلمنا فى فاتحة الكتاب قلنا : إن الله يُعلمنا أن نقول : « إياك نعبد » فكلنا يارب نعبدك وسنسعد جميعنا بذلك ، واهدنا كلنا يارب ؛ لأنك إن هديتنى وحدى فسيستمتع غيرى بهدايتك لى ، وأنا سوف أشقى بضلاله . فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون مهديين جميعاً .

هذا على معنى « ادخلوا فى السلم كافة » أى جميعا . أما معنى قوله تعالى: « لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم » أى لا تتحملون أوزار ضلالهم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر . أما المعنى الثانى فادخلوا فى الإسلام بحيث لا يشذ منكم أحد . ويأخذ شيئا وبعضا من الإسلام ويترك بعضا منه ، فأنت تريد أن تبنى حياتك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم شرح أن للإسلام أسساً هى الأركان الخمسة ، وإياك أن تأخذ ثلاثة أركان وتترك ركنين ؛ لأن هندسة الإسلام مبنية على خمسة أركان .

وقد قال لى أحد المهندسين : إننا نستطيع أن ننشىء بنياناً على ثلاثة أركان أو على أربعة أو على خمسة . فقلت له : ولكن حين تجعل البنيان على أربعة أركان ، وتوزع الأحمال والأثقال على أربعة أسس ، هل يمكنك حين تُنشىء أن تجعلها ثلاثة أركان فقط ؟. قال : لا .

قلت : إذن فالبناء إنما يَنشأ من البداية على الأسس التى تريدها ، ولذلك فأنت توزع القوى على ثلاثة أو أربعة أو خمسة من البداية . والله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل أسس الإسلام خمسة ، وبعد ذلك يُبْنَى الإسلام ، وحين يبنى الإسلام فإياك أن

تأخذ لبنة من الإسلام دون لبنة ، بل يُؤخذ الإسلام كله ، فالضرر الواقع فى العالم الإسلامى إنما هو ناتج من التلفيقات التى تحدث فى العالم المسلم . تلك التلفيقات التى تحاول أن تأخذ بعضاً من الإسلام وتترك بعضا ، وهذا هو السبب فى التعب والضرر ؛ لأن الإسلام لابد أن يؤخذ كله مرة واحدة . إذن « ادخلوا فى السلم كافة » يعنى إياكم أن تتركوا حكماً من الأحكام . إن الذى يتعب المنتسبين إلى الدين الآن أننا نريد أن نلفق حياة إسلامية فى بلاد تأخذ قوانينها من بلاد غير إسلامية .

إذن حتى ننجح فى حياتنا ، فلابد أن نأخذ الإسلام كله . وللأسف فإن كثيراً من حكام البلاد المسلمة لا يأخذون من الإسلام إلا آخر قول الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » إنهم يأخذون « أولى الأمر منكم » ويتركون « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

وأقول : لماذا تأخذون الأخيرة وتتركون ما قبلها ؟ إن الله لم يجعل لولى الأمر طاعة مستقلة بل قال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر » ليدل على أن طاعة ولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة الرسول . فنحن لا نريد تلفيقاً فى الإسلام ، خذوه كاملاً ، تستريحوا أنتم ونسترح نحن معكم .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد بدعوتنا إلى دخول الإسلام أن يعصم الناس من فتنة اختلاف أهوائهم فخفف ورفع عن خلقه ما يمكن أن يختلفوا فيه ، وتركهم أحراراً فى أن يزاولوا مهمة استنباط أسرار الله فى وجوده بالعلم التجريبى كما يحبون ، فإن أرادوا رقياً فليُعْمِلُوا عقولهم المخلوقة لله ؛ فى الكون المخلوق لله ، بالطاقة المخلوقة لله ؛ ليسعدوا أنفسهم ويدفعوها إلى الرقى ، وإن انتهى أحد منهم إلى قضية كونية ، واكتشف سراً من الأسرار فى الكون فهو لن يقدم للناس جديداً فى المنهج ، وسيأخذ الناس هذا الجديد ولا يعارضونه .

إذن فمن الممكن أن يستنبط العلماء بعضاً من أسرار قضايا الكون المادية بوساطة العلم التجريبى ، وهى أمور سيتفق عليها الناس ، ولكن البشر يمكن أن يختلفوا فى الأمور النابعة من أهوائهم ؛ لأن لكل واحد هوى ، وكل واحد يريد أن يتبع هواه

ولا يتبع هوى الآخرين ، والحق سبحانه يريد أن يعصمنا من الأهواء لذلك قال لنا : « ادخلوا فى السلم كافة » أى ادخلوا فى كل صور الإسلام ، حتى لا يأتى تناقض الأهواء فى المجتمع .

وكن أيها المؤمن فى سلم مع نفسك فلا يتناقض لسانك مع ما فى قلبك ، فلا تكن مؤمن اللسان كافر القلب . كن منسجماً مع نفسك حتى لا تعانى من صراع الملكات . وأيضاً كن داخلاً فى السلام مع الكون الذى تعيش فيه ، مع السماء ، مع الأرض ، مع الحيوان ، مع النبات . كن فى سلم مع كل تلك المخلوقات لأنها مخلوقة مسخرة طائعة لله ، فلا تشذ أنت لتغضبها وتُحْفِظها عليك .

كن منسجماً مع الزمن أيضاً ؛ لأن الزمن الذى يحدث فيه منك ما يخالف منهج الله سيلعنك هو والمكان ، وإذا أردت أن تشيع سلامك فى الكون فعليك كما علمك الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسالم كل الكون ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشيع السلام فى الزمان والمكان ، وعلى سبيل المثال كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس صياماً فى شعبان ، ولما سأله الصحابة عن هذا أخبرهم أن شعبان شهر يهمله الناس لأنه بين رجب ، ـ وهو من الأشهر الحرم الأربعة ـ وبين رمضان، فأحب أن يحيى ذلك الشهر الذى يغفل عنه الناس ، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يسعد الزمان بأن يشيع فيه لوناً من العبادة فلا يجعله أقل من الأزمنة الأخرى .

كذلك الأمكنة تريد أن تسعد بك ، فكل الأماكن تسعد بذكر الله فيها . والحق ـ سبحانه ـ بعد أن أمرنا جميعاً بالدخول فى السلم بافعل ولا تفعل ، حذرنا من اتباع الشيطان لأنه هو الذى يعمل على إبعادنا عن منهج الله ، فقال جل شأنه :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) ﴾

(سورة البقرة)

ولماذا لا نتبع خطوات الشيطان ؟ لأن عداوته للإنسان عداوة مسبقة ، وقف من

آدم هذا الموقف ، وبعد ذلك أقسم بعزة الله أن يغويكم جميعاً ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حكى لنا القصة فكأنه أعطانا المناعة ، أى أن الشيطان لم يفاجئنا. وإنما وضع الحق أمامنا قصة الشيطان مع آدم واضحة جلية ليعطينا المناعة ، بدليل أننا حين نريد أن نصون أجسامنا نجعل لأنفسنا مناعة قبل أن يأتى المرض ، نُطعم أنفسنا ضد شلل الأطفال ، وضد الكوليرا ، وضد كذا ، وكذا ، فكأن الله سبحانه وتعالى يذكر قصة الشيطان مع أبينا آدم ليقول لنا : لاحظوا أن عداوته مسبقة .

وما دام له معكم عداوة مسبقة فلن يأخذكم على غرة ؛ لأن الله نبهكم لتلك المسألة مع الخلق الأول . والشيطان عندما يُذكر فى القرآن يراد به مرة عاصى الجن ، لأن طائع الجن مثل طائع البشر تماماً ، ومرة يريد به شياطين الإنس. إذن من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين .

وحتى تستطيع أن تفرق بين ما يزينه الشيطان وبين ما تزينه لك نفسك ، فإن رأيت نفسك مصراً على معصية من لون واحد فاعلم أن السبب هو نفسك ، لأن النفس تريدك عاصياً من لون يشبع نقصاً فيها فهى تصر عليه : إنسان يحب المال فتتسلط عليه نفسه من جهة المال ، وإنسان آخر يحب الجنس فتتسلط عليه نفسه من جهة النساء ، وثالث يحب الفخر والمديح فتتسلط عليه نفسه من جهة مَنْ ينافقه . لكن الشيطان لا يصر على معصية بعينها ، فإن رآك قد امتنعت عن معصية فهو يزين لك معصية أخرى ؛ لأنه يريدك عاصياً على أية جهة .

والحق يحذرنا « ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . وليس هناك عداوة أوضح من عداوة الشيطان بعد أن وقف من آدم وقال ما أورده الحق على لسانه :

﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾

(سورة ص)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

والزّلة هي المعصية ، وهي مأخوذة من « زال » ، وزال الشيء أي خرج عن استقامته ، فكأن كل شيء له استقامة ، والخروج عنه يعتبر زللا ، والزلل : هو الذنوب والمعاصي التي تخالف بها المنهج المستقيم .

« من بعد ما جاءتكم البينات » إنه سبحانه يوضح لنا أنه لا عذر لكم مطلقا في أن تزلوا ؛ لأنني بينت لكم كل شيء ، ولم أتركم إلى عقولكم ، ومن المنطقي أن تستعملوا عقولكم استعمالا صحيحا لتديروا حركة الكون الذي استخلفتكم فيه ، ومع ذلك ، إن أصابتكم الغفلة فأنا أرسل الرسل . ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

لقد رحم الله الخلق بإرسال الرسل ليبينوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المعوج . والحق سبحانه وتعالى يترك بعض الأشياء للبشر ليأتوا بفكر من عندهم ثم يرتضي الإسلام ما جاءوا به ليعلمنا أن العقل إذا ما كان طبيعيا ومنطقيا فهو قادر على أن يهتدي إلى الحكم بذاته . وفي تاريخ الإسلام نجد أن سيدنا عمر قد رأى أشياء واقترح بعضا من الاقتراحات ، ووافق عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ينزل القرآن على وفق ما قال عمر ، وقد يتساءل أحد قائلا : ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم أولى ؟

نقول : لو كانت تلك الآراء قد جاءت من النبي صلى الله عليه وسلم لما كان فيها غرابة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم ويوحى إليه ، لكن الله يريد أن يقول